الشيخ نظام الدين الأولياء : ومكانته فى المجتمع الهندى

الأستاذ السيد أبو بكر الحسنى

ما زالت دلهى عاصمة بلاد الهند، مركزاً هاماً للعلماء والصلحاء والأتقياء والأولياء فكان الشيخ نظام الدين الأولياء ، من بين هؤلاء الأولياء الذين ذاع صيتهم فى السهل و الجبل ، و انتشرت شهرتهم فى القرى و المدن .

ويسمى هذا العالم الجليل التقى بمحمد بن أحمد بن على البخارى نظام الدين الأولياء ، و جاء فى أخبار الأخيار أن جده الخواجه على قد قدم إلى الهند من بخارا و أقام فى لاهور برهة من الزمن ثم انتقل إلى بدايون حيث تولد شيخنا الجليل نظام الدين سنة ٦٣٦ من الهجرة .

مولده :

و جاء فى كتاب تاريخى آخر أن والده أحمد بن دانيال قدم إلى الهند من غزنين، ومهما يكن من أمر، فانه قد ثبت أن أسرته قد استوطنت بدايون .

و يذكر التاريخ أن أباه قد توفى عندما كان نظام الدين رحمه الله لم يتجاوز الخامسة من عمره فتربى طبعاً تحت رعاية أمه زليخا ، و كانت أمة صالحة متدينة فتركت أخلاقها و خصائلها الحميدة أثراً عميقاً على ابنها الذكى العاقل .

و مما يذكر أنه لما توفى والده انتقلت والدته مع ابنها من بدايون إلى دلهى و سكنت بالقرب من أحد المساجد ، و عاشت عيشة عسيرة و مع ذلك

فانها لم تتغافل تربية وتعليم ابنها الحبيب فعندما علمت أن هناك عالماً تقياً ورعاً يسكن فى دلهى و هو شمس الدين الخوارزمى و هو الذى كان قد اتخذه بلبن وزيراً له فيما بعد ، أرسلت إليه نظام الدين للاستفادة ، فحفظ عنه أربعين مقامة من المقامات الحريرية و قرأ المشارق للصغانى على الشيخ كمال الدين محمد الزاهد الماريكلى و حفظه كفارة عن المقامات و كان إذ ذاك عالم كبير آخر يسكن بجوارينها يسمى بنجيب الدين المتوكل و كان نظام الدين رحمه الله يزوره فى معظم الأحيان فبينما هو جالس أمامه سمع واحداً من زائريه يتحدث عن أخيه المعروف بالخواجه فريد الدين جنج شكر و مناقبه و عاداته وطرق سلوكه و علو مرتبته و أشغاله و أعماله و زهده و سخائه و خشيته و اتباع السنة بحذافيرها فاشتاق إلى رؤيته نظام الدين الأولياء ، فعزم على سفره إلى « أجودهن» وهيأ الأسباب للسفر المبارك وقام برحلة دينية محضة حتى وصل إليه ولاقاه بقلب طهور و أخذ أثناء إقامته عن الشيخ الكبير القرآن الكريم و عوارف المعارف و كتاب التمهيد للشيخ أبي شكور السالمى ، و بايعه و صحبه مدة عكف خلالها على تزكية النفس و تطهير الباطن و صفاء القلب و تنوير الروح حتى أجازه الشيخ و أمره بالذهاب إلى دلهى .

أوضاع سائدة فى دلهى فى ذلك الوقت :

فلما وصل إلى دلهى وجدها غير ما شاء أن يجدها فان مواطنى دلهى لم يكونوا صالحين ، أخلاقهم رديئة وعاداتهم قبيحة ، فمعظم الناس كانوا أشراراً و أرذالا وأوغاداً يهرب منهم الصالحون و يفر منهم الزاهدون ، فقلق الشيخ نظام الدين قلقاً شديداً و لم يستطع الاختيار بين إقامته فيها أو الابتعاد عنها ، و لكن لم يكن له مفر من الامتثال لأمر شيخه .

طرق إصلاحه بالقول و العمل :

فطاف أولا بنواحيها و شاهد أمورها و أحوالها ثم استقر على ماعزمه و اختار لنفسه غياث بور ، قرية صغيرة و أسس « زاوية » أصبحت فيما بعد مركز الاصلاح و التبليغ ، و مرجع الخلائق عامة و خاصة ، و كانت أيامه فى ذلك الوقت شاقة متعبة بحيث إنه لم يستطع إطعام نفسه وغيره فجعل يروح إلى الغابات يجمع منها الحطب ويطبخ الطعام بنفسه فيأكله مع تلامذته ومريديه و على الرغم من هذا البؤس والشقاء كان دائماً نشيطاً يستقبل النـــاس برحابه صدر و ببشرة مبتسمة يعلمهم و يزكيهم و يرشدهم إلى سواء الصراط فأصبح اسمه معروفاً فى جميع القرى و المدن يفد إليه الناس من كل حدب و صوب ليخرجهم من الظلمات إلى النور و يهديهم من الضلال إلى الرشاد فيمكث مثل هؤلاء الناس عنده أياماً يأكلون معـــه و يشربون معه ولو كان الطعام خشناً والماء ساخناً فعند ما علم السلطان جلال الدين الخلجى بفقره قدم إليه تقديراً لعلمه و تقواه أرضاً يقتات بها فرفض الشيخ قبول مثل هـذه النعمة و أبلغه هذا القول المشهور « لست أنا و المتوسلون إلى بحاجـــة إلى عقارك أو ضيعتك ، فكفـانا الله و هو حسبنا و نعم الوكيل » إنه لا شك فيه أن نظام الدين الأولياء كان من أجل أتباع بابا شكر جنج وأعظم مريديه ، فكان نظام الدين يطيع أوامر شيخه و يسلك مسالكه و ينفذ وصاياه ، و انقطع إلى الله سبحانه و تعالى بقلبه وقالبه مع الزهد و العبادة والعفاف والخشوع والتوكل والتضحية ، لا يذهب إلى سلطان ولا يزوره ، و إذا دعاه أرسل خادمه إليه فغضب السلطان مرة على ذلك و قال : إذا لم يحضر الشيخ بنفسه فى الشهر القادم نفعل به ما نشاء ، فحزن مريدوه ، و لكنه لم يعلق أى أهمية على هذا

التهديد حتى أتى الشهر المقبل و جاء الوقت المحدد ولم يذهب إليه ، و علم أن السلطان الذى هدده قد قتل الليلة التى كانت محددة لزيارته .

نتائج تضحياته :

فلما عم تعليمه و ذاعت شهرته وتاب على يده كثير من المذنبين والطغاة و المجرمين و قطاع الطرق و اللصوص ، و أصبحوا بعد إصلاحـــه صالحين التفت إليه أعيان المدينة و أصحاب الحكومة ومنهم الأمير خسرو شاعر البلاط الملكى ، فتأثر بتعاليمه وحرص على ملازمته دائماً ودخل فى زمرة مريديه وبلغ حبه بشيخه إلى درجة لم يبلغها أى مريد آخر .

كان الشيخ نظام الدين الأولياء دون أى شك مجاهداً كبيراً و زاهـــداً للغاية يقوم الليل و يعبد الله و يصوم النهار و يذكر أنه لم ينكح امرأة ولم يبن داراً و لم يدخر شيئاً و لم يرض بلقاء الملوك و السلاطين مهما كان إلحاحهم أو اشتياقهم فحدث مرة أن ملكاً من الملوك أراد أن يلاقيه بغتة ، فلما اطلع الشيخ على هذا الأمر خرج من دلهى وذهب إلى « أجودهن » قبل أن يصل الملك إلى منزله .

إنه من أمر واقع أن الشيخ رحمه الله قد ضحى بحياته فى إرضاء الله تعالى ، و إبلاغ أوامره و تربية الناس وتزكيه نفوسهم ، وإصلاح أحوالهم ، و نشر التعاليم الاسلامية المطهرة و تعميمها و ترويجها أحسن ترويج .

و جاء فى كتاب نزهة الخواطر للمؤرخ الكبير العلامة الشيخ عبد الحى الحسنى شرح دقيق و وصف بليغ عن شخصية هذا الامام الكبير . و هـــذا هو النص :

الشيخ الامام العالم الكبير العلامة صاحب المقامات العلية و الكرامات

المشرقة الجليلة نظام الدين محمد بن أحمد على البخارى البدايونى أحد الأولياء المشهورين بأرض الهند ، انتهت إليه الرياسة فى دعاء الخلق إلى الله تعالى والتسليك فى طريق العبادة ، والانقطاع عن الدنيا مع التضلع من العلوم الظاهرة والتبحر فى الفضائل الفاخرة .

ولد بمدينة بدايون فى سنة ست و ثلاثين و ستمائة ، و توفى والده فى صغر سنه فربى فى حجر أمه و اشتغل ، و قرأ الفقه و الأصول والعربية على الشيخ علاء الدين الأصولى ، ثم سافر إلى دلهى ، وكان فى الخامسة عشرة من سنه فقرأ الكتب الدرسية على أساتذتها ، منهم الشيخ شمس الدين الخوارزمى، وحفظ عنه أربعين مقامة من مقامات الحريرى ، ثم قرأ المشارق للصغانى على الشيخ كمال الدين محمد الزاهد الماريكلى وحفظه كفارة عن المقامات ، ثم سافر إلى أجودهن و أخذ عن الشيخ الكبير فريد الدين مسعود الأجودهنى القرآن الكريم و عوارف المعارف وكتاب التمهيد للشيخ أبى شكور السالمى ، ولبس منه الخرقة و صحبه مدة ، و أجازه الشيخ فى سنة تسع و ستين و ستمائة ، و أذن له إلى دلهى و أمره أن يقيم بها فرجع و أقام بدلهى فى أمكنة عديدة يدور فى محلاتها طالباً العزلة حتى أقام بغياث بور و اشتغل بها بالمجاهدة من الصيام و القيام و الذكر و الفكر فى الأربعينات على طريق السادة المشايخ الجشتية و كان شيخه فريد الدين أوصاه عند توديعه أن يحفظ القرآن الكريم و أن يصوم دائماً و قال : إن الصوم نصف الطريق ، فلازمه وحفظ القرآن و انقطع إلى الله سبحانه و تعالى بقلبه و قالبه مع الزهد و العبادة و العفاف و القنوع و التوكل و الايثار و سائر الأخلاق المرضية ، ولقد أحله الله تعالى من الولاية محلا لايرام فوقه ، وهدى به فى عهده ثم بأصحابه من بعده خلقاً لا يحصيهم إلا من أحصى رمل عالج ، فلا ترى ناحية من نواحى المسلمين من بلاد الهند إلا و قد نمت فيها طريقته و جرى على ألسنة أهلها ذكره ، إليه ينتمون و به يتبركون ..